اشتراكية بلدنا

بقلم الأستاذ عبد المنعم الصاوى
وكيـــل وزارة الثقافة

عرض وتحليل الأستاذ سعيد حمزه مكرم المحامى

قدرت حين أقبلت على كتاب الأستاذ عبـــد المنعم الصاوى عن « اشتراكية بلدنا » أن أفرغ من قراءته فى بضع ساعات متفرقات على أيام الأسبوع ؛ فالأبحاث العلميـــة عادة فى حاجة إلى الأناة والتأمل والمراجعة ولكن ما أن مضيت مع سطور الرسالة التى حسبتها بحثا علميا اقتصاديا — حتى وجدتها شيئاً آخر لا يقل جلالا عن البحث الاقتصادى . . إنه هو أيضاً بحث — لا فى الظواهر الاقتصادية وقوانينها — بل فى الظواهر الإنسانية الأصيلة فى طبيعة هذا الشعب فى القرية وفى المدينة وفى العاصمة وفى كل مكان فى الاقليم الجنوبى أو الشمالى بل فى كل مكان من الوطن العربى الكبير .

وإذا كان لعالم الاقتصاد وسائله وأدواته فى دراسة ظواهره فقد اتخذ عبد المنعم الصاوى ما يلائم طبيعة بحثه من وسائل تجدها فى اللغة الذكية ، وفى الألمعية النفاذة وفى الصورة الأدبية المشرقة وقبل كل أولئك فى الإيمان ببناء جوهر هذا الشعب .

وقد استطاع بوسائله هذه أن يغير من تقديرى الذى ذكرت فإذا أنا مقبل على صفحات الكتاب أكاد أعانق سطورها ، ولم تستطع شواغلى الملحة أن تصرفنى عن حديث عبد المنعم الصاوى الممتع عن « اشتراكية بلدنا » إلى آخر كلمة من سطوره فى جلسة واحدة .

ولقد كان منهج عبد المنعم الصاوى فى بحثه منهج الفنان الأصيل فقد راح يستعرض أحداث حياته منذ كان طفلا

يحبو فى أحضان المنزل ، ثم صبيا يمرح فى ساحات القرية ، ثم فتى يختلف إلى مدرسة المدينة ، ثم شابا يتفاعل مع الحياة العامة . ثم يكشف فى براعة عن هذه الخيوط الدقيقة القوية التى تشده إلى حياة الناس من حوله فى القرية وفى المدينة وفى كل مكان يلتقى فيه بأهل بلدنا .

ومضت حياته سلسلة من التجارب العابسة أحياناً والباسمة أحياناً ومع كل تجربة منها يزداد رصيده الوجدانى ثراء بإحساس كبير ويتسع إدراكه الغض لمعنى جليل (ومن هنا تشكلت نفسيته بشكل الجماعة التى عاش فيها وأدرك أنه لا يستطيع أن يكون وحده ولا ينبغى أن يكون وحده حتى لو أراد) .

ثم تتوالى عليه تجارب الحياة ومع كل تجربة منها يعمق إحساسه بالروابط القوية التى تشده إلى الجماعة ، ويزيد إيمانه بما تعتنقه من مثل .

وتجربة هذه المرة تجربة ضاحكة - على الأقل أول ما طالعته - فقد أخذ بمشاعره واهتمامه هذا الاعداد النشيط لليلة عرس أحد شباب القرية فوقف مبهورا يتابع حركات القوم وراح يطلق لخياله الساذج حرية التحليق مع تهاويل لداته وأقرانه من الأطفال والصبية عن « الغزية » والسامر والطباخ والسفرة والزفة وأخيراً الدخله ! ! وكم كان لكل لفظ من هذه الألفاظ بريق وسحر وهالة اهتز لها وجدانه من أعماقه . ثم يسرع الخطو إلى منزله وكأنه يتعجل إخبار أمه بهذه الأخبار المثيرة ، وما يكاد يقترب من الدار حتى يرى عجبا : (أولاد أعمامه من الشباب ملأوا مدخل الطرق إلى الدار وقد أمسكوا بعصى غليظة رهيبة . والكبار من أقاربه يصيحون فى شىء يشبه النذير . والمسنون من من الجيران والأنسباء والأصهار يحاولون أن يخففوا من حدة الغليان . . والنسوة داخل الدار وخارج الدار يبكين ويعددن) ! ! وما أسرع ما اقتنع صاحبنا بوجهة نظر القوم ؛ إن أهل الفرح هؤلاء يجب أن يؤدبوا ويجب أن تحطم رءوسهم جزاء استهتارهم بمشاعر حزن الأسرة وحدادها على عميدهم الراحل وينبغى إذن أن ينضم إلى الحشد المتجمهر أمام الدار فى انتظار مرور « الزفة » لتكون واقعة الثأر للكرامة والكبرياء .

على أن إرادة الله وروح التضامن الأصيل فى نفوس أهل بلدنا قد شاءت أن تجعل من هذا التوتر بالشر والفاجعة إرهاصا لدرس قيم فى مبادىء اشتراكية بلدنا يتلقاه الصبى المتحفز للثأر .

لقد أقبل العمدة على رأس وفد من علية القوم فى القرية يؤكد لهم فى صدق ودود أن أهل الفرح لم يخطر ببالهم أن يمسوا جراح قلوبهم ، وإنهم عازمون على إتمام عرسهم فى أضيق نطاق إذا أذنوا لهم فى ذلك . ثم قدم العمدة كبير أهل الفرح يعتزر إليهم ويستأذنهم ! (أما هو فقد وجد منطق العمدة معقولا) وعجب الصبى للشيخ الوقور يتقدم منه فى تواضع وتقدير يستأذنه وهو الذى لم يتجاوز العاشرة وكم أدهشه أن يدى الشيخ الكبير وقد انسابت على خديه (دموع أحس أنها صادقة وحارة فانسابت دموعه معه) إنه لتعبير صادق الروعة عن المشاركة الوجدانية المخلصة من أهل الفرح لأهل المأساة . . فإذا كان الفرح لم يستغرق مشاعر أهله فلم ينسهم مأساة الآخرين فلا أقل من أن يرتفعوا هم أيضا إلى هذا المستوى النبيل فلا تضيق قلوبهم المحزونة بسعادة الآخرين !! وإذاً فليعلن على الملأ إنه (يأذن لهم بالفرح كما يشاءون فإن موت أبيه لا يعنى أن تعيش القرية فى أحزان ، وأن أباه لم يمت على أية حال ، ولو أنه بعث إلى الحياة لأذن بإقامة الفرح لأنه كان يحب أن يسعد الناس) .

(ولقد خرج من هذه التجربة بأكثر من درس وبأكثر من نتيجة :

بدأ يعرف أن المشاركة الوجدانية ليست محدودة داخل داره وبينه وبين أمه واخوته . . وإنما هى شىء يمكن أن يمتد إلى خارج الدار حيث الأهل والجيران والأصدقاء) وقوم آخرون لاتربطه بهم إلا روابط المروءة والشهامة وتقدير مافى صلات الإنسان بالإنسان من الخير والفضيلة والحق .

وبدأ يعرف أن اجتماع الرأى والتقاء الكلمة قوة رائعة هائلة لها أثرها السحرى فيما تحيا عليه بلدنا من تقاليد .

وبدأ يعرف أن الجماعة ليست كلاماً يطلق . . ولا هى كلمة تقال لا تتجاوز حروفها بقدر ما هى معنى مستقر فى الضمير يدفع الإرادة دائماً إلى أن تكون حيث تريدها الجماعة أن تكون .

وبدأ يعرف أن العصبة بين أبناء بلدنا ليست إلا نوعاً من رقابة المجتمع على سلوك الأفراد أنفسهم إذا انحرفوا أو خولت لهم نفوسهم أن يشذوا عما تعارف عليه المجموع .

وبدأ يجد تفسيرات جميلة لما يشاهده ويراه وكانت كل هذه التفسيرات تنتهى به إلى أن مجتمع بلدنا مجتمع يقظ قوى لا يقر إلا ما هو حق وخير .. وإن الانفراد فيه بشذود أو انحراف نوع من فرض شيء عليه ليس من طبيعته ولا من طينته يقاومها المجتمع كله فيقومها فى أغلب الأحيان .. على أن الأحزان لا تدوم فما هى إلا شهور حتى انتهى حداد الأسرة ، وجرف تيار الحياة حواجز الموت وعادت إلى القرية ابتسامتها الطيبة .. وكان ذلك دليلا على نوع من التنظيم الوجدانى بين أهل بلدنا ؛ فإن المشاركة الوجدانيـــة أو اشتراكية الوجدان فى طبيعتنا لا تؤدى أبداً إلى استغلال العاطفة كما لا تعنى فرض نوع من احتكار مشاعر الناس لمصلحة فريق من الناس فإذا مضت مدة الحداد فقد أصبح من حق الناس أن يعودوا يمارسون حقوقهم فى البهجة وفى السعادة وفى المتاع بغير أن يتعرضوا لرقابة المجتمع أو يقعوا تحت طائلة ما يفرضه من عقوبات)

وقد علمته هذه التجربة أن من حق الناس فى قريتهم وقد شاركوهم المأساة أن يحاملوهم هم أيضا فى أفراحهم وهكذا كان عليه أن يقبل دعوة أسرة من أهل بلده حين سعوا إليه متلطفين فى دعوته إلى فرح أحد أولادهم . .

وحين كان يخلو إلى نفسه يمنيها بسهرة رائعة ليلة العرس المرتقب كان لا يعكر عليه صفو أحلامه الا تفكيره فى تدبير أمر النقطة !! والنقطة فى عرف أهل بلدنا مجال للظهور بالمظهر اللائق وسباق إلى تأكيد الود الذى يربط بين قلوب أبناء أسر القرية وأسرة أهل الفرح . ولم يكن يتخيل أن أمه يؤرقها شأن آخر هو كيف ترد مجاملات القوم فى مثل هذه المناسبة ثم لا تجد مناصا من بيع بعض حليها (حتى توفى ما تفرضه تقاليد بلدنا على الأسرة من التزامات) وحين اكتشف هذه الحقيقة (فتحت له هذه المعلومات آفاقا جديدة يفكر فيها : إذن ليس فرح هل بلدنا مقصور اعلى الزفة أو الغزية أو الطباخ وليس فرح أهل بلدنا هو دقات الطبول أو أصوات المغنين أو

راقصات تتثنى وتتلوى وتنساب . . . والإلكانت جميعاً جوفاء . . وانما فرح بلدنا فى اشتراكيته فى الشعور بالمسؤلية الجماعية وفى إيمان مجتمع بلدنا بأن توزيع الحمل يخفف من ثقله ويجعله فى قدرة طاقات الناس . . . فرح بلدنا فى أنه فرح بلدنا كلها لا فرح واحد من أبنائها ولا واحدة من بناتها ولا أسرة أو أسرتين من أسراتها . . ولكنه فرح يشارك فيه الجميع بما يستطيعون أن يقدموا من عون حقيقى يمكن الأسرة من تحمل ماتواجه من مسئوليات (وهكذا علمه الفرح الأول من أفراح قريته سراً من أعز اسرار بلدنا إلى قلبه لأنه يفسر له اشتراكية بلدنا كأجمل ما يكون التفسير الإنسانى للاشتراكية وللعدالة الاجتماعية وللتعاون وللديمقراطية ولاى مفهوم من هذه المفهومات التى يصبونها قوالب ومركبات تفقدها مايكسوها من بهجة وما تتضمنه من فهم لكرامه الإنسان .)

وإذا كانت القرية تتعاون على هذه الصورة البسيطة الجميلة - فى فرح أحد أبنائها فهى أسرع للتضامن وأطوع للمروءة فى مصاب أى منهم . وقد علمته مأساة الغير هذه المرة دروسا جديدة فبعد أن وارت القرية أحد أبنائها التراب وجد نفسه ملتزما التزاما أدبيا صارما ألا يبرح مكان العزاء إلا لضرورة ، وإذا هو يشهد فى أيام العزاء الثلاث ألوانا مشرقة من التعاون والتضامن والمشاركة الوجدانية التى لا تقف عند قول معروف أو كلمة طيبة بل هى ممارسة عملية للبذل والمروءة والإيثار .

(ولم ينم ليلتها إلا قليلا فإنه أخذ يستعرض أحداث يومه وماقام به من أعباء والمعانى الكبيرة التى يقف عليها كلما سنحت فرصة عن حياة بلدنا ، وعن اشتراكية بلدنا .. إن بلدنا فى المحنة هى بلدنا فى النعيم .. تؤمن أن الأمر أمرها هى ، لا أمر واحد من آحادها ، بل إن كل فرد فيها يشارك فيه بقدر مايستطيع ، لانها تؤمن باشتراكية الوجدان ، واشتراكية الضمير ، واشتراكية المحنة ، واشتراكية النعمة جميعا !! وهى لا تكتفى بمجرد الإيمان بهذه المبادئ ولكنها تنفذ ذلك بالفعل منذ خلقها الله وسواها بلداً طيباً رائعا جميلا ..

وماتكاد القرية تعود إلى هدوئها أو يعود إليها هدوءها حتى يفجأها النيل بغضبة من غضباته تكتسح

أمامها السدود والحواجز فإذا القرية في لحظات يكاد يجرفها الموج ويفزع صاحبنا من نومه على الصراخ والاستغاثة (وعندما أراد أن يخرج ليشارك الناس فيما هم فيه أحس أن يدا قد امتدت إليه لم يتبينها في الضوء الخافت وأن هذه اليد قد ناولته معطفا وفأسا حتى لا يذهب مجردا من أي سلاح في معركة تحتاج إلى مختلف أنواع السلاح وخرج يعدو ولم يحس إلا أنه واحد من طابور طويل كله يعدو ويتسابق إلى حيث شاع أن الجسر انقطع. وهناك رأى كيف تكون النجدة والبطولة والتضحية حتى لقد استطاعوا أن يكبحوا جماح الفيضان)

ثم يقبل موسم الحصاد (ويتصل الليل بالنهار في قرانا فلا تكاد ترى فيها إلا وجوها ابتلعتها الضحكات ،والا عيونا جلاها بريق الأمل ، وإلا أجسادا أستبد بها الطرب فترقص في تعبير دقيق عن عمق الرجاء)

وفي مواسم الحصاد يفيض الخير على أهل بلدنا (فالخير في بلدنا ليس خاصا بشخص ولا بفرد ولا بجماعة ، ولكنه خير عام للبلد جميعاً نصيب فيه) صاحب الأرض والمستأجر والعامل ثم يأتي بعد ذلك دور من يؤدون للقرية خدمات عامة كالمؤذن وامام المسجد وفقيه الكتاب وخادم المقابر وحلاق الصحة والدايه لكل منهم نصيبه (وهذه الأنصبة مقدسة عند أهل بلدنا بلا سلطة ولا قدوة ولا قانون لأنهم يدركون بطبعهم قيمة الخدمات العامة لحياة القرية ، ويدركون ضرورة أن تخصيص ناس لها ، ويدركون أن لهؤلاء الناس حقوقا بقدر ما يؤدون للقرية من واجبات)

أما الزكاة والإحسان والصدقة والتعاون على البر فمقدسات تؤدى (سرا وتحت جنح الظلام إلى المحتاجين من أسر القرية وبيوتها (وبلدنا تؤمن بأن كل جميل وكل فضل وكل خير سلف ودين فالذي يأخذ اليوم سيأتي يوم يستطيع فيه أن يعطى وحينئذ سيعطى عن سماحة ورضا وسرور . . . وهكذا تعيش بلدنا متعاونة بطبعها متكاملة متكافلة بغير أن تحتاج إلى دراسات أو تركيبات أو تعريفات لتحقق هذه الغايات)

ثم يرحل صاحبنا عن قريته إلى المدينة ثم إلى العاصمة ثم إلى بلاد مختلفة من الوطن العربي الكبير . وكلما مضى

يضرب فى الأرض تجلى له (ما يتميز به مجتمعنا من اشتراكية خاصة لها جذورها فى نفوسنا وأصالتها فى ضمائرنا وامتدادها فى حياتنا . . فبلدنا تعيش حياتها تطبق نوعا من الاشتراكية العميقة الأصيلة غير معتمدة إلا على ذوقها الخاص غير مستندة إلا إلى ظروف البيئة والناس .

فاشتراكية بلدنا إذن هى (اشتراكية الوجدان وتحمل مسئوليات الحياة .. اشتراكية النعمة واشتراكية الشقاء .. اشتراكية العقل واشتراكية القلب .. واشتراكية الإرادة .. اشتراكية العاطفة التى تذيب الحقد وتصهر الحسد وتطهر النفوس .)

وبعد فقد استطاع عبد المنعم الصاوى أن يأخذ بمشاعرى عند كل لمحة من لمحاته الذكية وعند كل لفتة من لفتاته المعبرة ، حتى لقد نسيت شواغلى واندفعت معه عبر قريته اشهد معه أفراحها ، وارتاد معه حلقات ذكرها ، وألم معه بسرادقات مآتمها وأفزع معه لاستغاثات النجدة تمزق سكون ليلها ، وأجرى معه يسبقنى وأكاد أسبقه إلى حيث قطع السد لأخوض مع أهل بلده معركة المقاومة الباسلة للفيضان الأرعن .

والحق أننى لم أنكر من تفصيلات الحياة فى بلد عبد المنعم الصاوى شيئاً فهى هى نفس تفاصيل الحياة فى بلدنا ، وملامح أهل بلده هى نفس ملامح أهل بلدنا .. أما الشىء الجديد حقاً فهو هذا البعد الجديد الذى اكتشفه عبد المنعم الصاوى فى أشكال الحياة وأنماط العيش عند أهل بلدنا .. إنه البعد النفسى أرق ما يكون شفافية ، وأبعد ما يكون عمقاً ، وأجمل ما يكون صورة !!

ولست أدرى كيف كنا نتفاعل بالحياة فى القرية على هذا النحو من القوة . وعلى هذا النحو من الغموض أيضاً دون أن نحاول تجريد هذه المعانى الكبيرة ، أو قياس أبعاد هذه الحياة الزاخرة !!

ربما كنا فى حاجة إلى فنان فلاح أو فلاح فنان ليجرى قلمه بهذه اللمسات المعبرة المضيئة ولقد كان عبد المنعم الصاوى هنا الفلاح الفنان الذى استطاع أن يستشف من هذه التفاصيل البسيطة الساذجة فى حياة أهل بلدنا ، كل هذه المعانى الجليلة التى تعكس هذه الصورة المشرقة من (اشتراكية بلدنا) .

فى المجموعة الشمسية فى مجرتنا - سكة التبانة - تكاد تبلغ مليون كوكب أرضى ، حيث يصبح من المؤكد قيام حيوات كحياتنا مادامت ظروفها كظروفنا تماماً .. إذ أن العلم علمنا فى بحوثه أن المقدمات الواحدة - تماماً - تؤدى إلى نتائج متشابهة .. وعلى هذا الأساس العلمى نقدر كثيراً من النتائج رياضيا قبل التحقق منها فى معاملنا .. وأهل البصيرة - بنور توفيق الله تعالى - يقولون : إنه من غير المعقول أن تخلو كواكب فى مثل ظروف أرضنا فى موادها الغازية والسائلة والصلبة من الحياة فذلك منطق العلم فى بحثه الذى يفرض الفروض ، ويقيسها بغيرها ثم يتحقق من صحتها ، وهو أيضا يقين البصيرة .

وهل للكواكب وجود دون عقل فاهم ، وعقلاء يفيدون منها ؟

سيقول قائل : إنها نيرات فى السماء زينة لها ، ومسخرة فى خدمة الإنسان على الأرض وميزان الجاذبية فى المجموعات الشمسية ؟ وكل هذا جميل ، وأروع منه أن تكون مهاداً لحياة كحياتك ، وروعة ونوراً لعقلاء فى مثل عقلك ... ثم لم لا تكون أرضك نفسها مسخرة لحيوات الكواكب كما سخرت لك أنت ؟

أما دليل هذا المنطق من القرآن العظيم، فهو ماتراه فى صفة خلق الأرض : كانت الأرض والسموات رتقا ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل شئ حى . وقدر فى الأرض أقواتها فى أربعة أيام ، والسماء بناها .. رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها. كل ذلك للعقلاء أصحاب الأمانة الكبرى ، خلفاء الله فى أرضه : « متاعاً لكم ولأنعامكم . » « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . » . ولكن العلم يقول إنه من قبل خلق الإنسان على الأرض بلايين السنين .. ترى هل كانت خالية من حياة عاقلة ؟ ! كلا وربك لقد امتلأت بها يقول الله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ منون والجان خلقناه من قبل من نار السموم» والقبلية تحتمل زمنا طويلا تحدده حكمة الله بقدرة الله لمجال عبادة العقلاء وذكرهم وتسبيحهم كالإنسان ..

قال تعالى : « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . » ولذلك كانت معارضة

الملائكة فى خلق الإنسان أنهم يقومون بالتسبيح وذكر الله فيملئون الأرض بنور العبادة لله بدلا من هذا الإنسان ..

ومعناه أنه ما خطت الأرض ، وأطلقت مع القمر والكواكب « كل فى فلك يسبحون » إلا لتكون مهاداً للحياة العاقلة التى تملأ الكوكب ذكراً وتسبيحاً والزمان عبادة وتقديساً . ولنا مع برهان القرآن حديث آخر بتوفيق الله ذلك منطق اليقين فى حكمة الله الخلاق العظيم ،وذلك برهان اليقين من كتاب الله الحكيم.

برهانه الفضية من صلحة محمد الكريم وأصحابه :

إن حديث المصطفى عن وجود حيوات فى أراض أخرى ، وعن سبق آلاف الأوادم أو خلقها كآدمنا ـ عليه السلام ـ ونص الحديثين : « إن الله خلق مائة ألف آدم كآدمكم » « إن لله أرضا بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوما مثل أيام الدنيا ثلاثين مرة مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله تعالى يقضى فى الأرض ولا يعلمون أن الله تعالى خلق آدم وابليس » من جواهر القرآن لحجة الإسلام الغزالى ، ودلالات الحديثين مستفيضة البيان والتفسير ،،، فالرسول فى معرض التمثيل بخلائق الله لا التحديد فمائة ألف فى عرف العرب كثير جداً ، وأرض بيضاء قدر الأرض أو يومها كثلاثين يوماً شىء كبير وخلائق الأرض البيضاء فى درجة من الرقى الروحى بحيث لا يتصورون أن الله يعصى فى الأرض على حد قول الصالحين من الجن : « وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا * سورة الجن » وكيف وهم غارقون فى نعم الله وفضله ، فأرضهم بيضاء ، ونهارهم طويل ، وأنوارهم مشرقة ، فعصية الله لا تخطر على بالهم فهم على حد قول الرسول الكريم فى شأن صحابى جليل . « لو لم يخف الله لم يعصه » فهو فى نعمة من الله وعلى نور منه تمنعه من المعصية فلا تخطر له على بال .

والعدد فى مائة ألف لا يبعد أن يكون للتكثير كما قال تعالى : « إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم . » فقال الرسول لو علمت أنه يغفر لهم لو زدت على السبعين لاستغفرت لهم » فالرسول أيضاً فى معرض إظهار قدرة الله العظيم وسعة ملكه فاكتفى بالكثير فى عرف السامعين ، ولا يمنع أن تكون هذه الأوادم فى مثل حياة بشريتنا على الأرض ، ومن ثم فهى تحكى عمار مائة ألف كوكب بمثل حياتنا وظروفها تماماً .

ولو رجعت إلى أهل العلم اليوم لقصوا عليك أن فى مجرتنا وحدها ما يقرب من مليون كوكب أرضى فى مثل ظروف كوكبنا ، وأنهم يؤكدون قيام حيوات كحياتنا أو قريب منها : إذ العجيب ألا يكون كذلك ما دام الخلاق العظيم بارئاً حكيما . ولا جائز أن تكون هذه الأوادم (مائة الألف) ظهرت على أرضنا لأن العلم يؤكد أن الأرض لم تصلح لسكنى الإنسان إلا منذ مليون سنة تقريباً ، ولا دلالة من ظهور بشر قبلنا على الأرض أخذ كل قبيل منهم قسطه من الحضارة والرقى ما تظهر فيه حكمة الخلاق العظيم الذى خلق للكمال خلفاء على الأرض .

أما الكوكب الذى يحكى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يبعد أن يكون زحل فإن هالة من النور تحيط به فتجعله فى روعة وجلال ، ولا شك أن أهله فى مثل هذا الجلال من الخلق والفهم . وأوردت الكتب فى أحاديث الخلق الكثير أكتفى منها بهذا .

ثم أثنى بمنطق الصحابة فى القضية . . فقد أورد الإمام البيهقى فى كتاب الأسماء والصفات فى رواية عن ابن عباس — حبر الأمة — فى تفسير قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً » ختام الطلاق . قال : سبع أرضين فى كل أرض بنى كبنيكم وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم وعيسى كعيسى » .

وهو ابن عباس الذى قال مرة لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم وكفركم بتكذيبكم بها . ولا شك أنها أراض تتنزل عليها إرادات الله العظيم فى مثل ظروفنا ، وليس يبعد أيضاً أنها للتمثيل . . كما سيأتى فى برهان القرآن العظيم . ومنه يقول أهل البصيرة إن فى كل كوكب حياة عاقلة منها ما يشبه حياتنا ومنها ما يختلف عنها باختلاف بيئته فلكل مجال حيوات . . .

كينونة هذه الحياة :

ونرى قبل أن ننطلق إلى برهان القرآن أن نوضح كينونة هذه الحيوات . ومنطق العلم فى ذلك خير هاد . فإننا نرى عند القطبين حيوات تختلف عنها فى خط

الاستواء فى النبات والحيوان والإنسان ، وأن من الجراثيم الحية ومالا يموت عند درجة الفليان العادية ، ومن الحيوان مايعيش فى الجليد القطبي لنصف عام أو فى الطين لشهور كما فى المبيت الشتوى للضفادع . .

وبنفس المنطق نقول : إن الذى خلق لكل جو ومنطقة حيوات على الأرض هو نفسه الذى سيخلق لكل جو ومنطقة فى كل كوكب حيوات تتكيف بنفس البيئة وترقى فيها ، وتملأ الوجود تسبيحاً وتقديساً ومعرفة للخلاق العظيم . .

وذلك يقيننا — والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم — سبحانه « وما كان الله ليعجزه من شيء فى الأرض ولا فى السماء » . « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » . وما فيهن « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً » .

برهان القرآن العظيم :

نستطيع أن نقرأ فيضا من آيات الله الكريم التى تدل على الخلق :

للسماوات (السبع) والأرض . وما بينهما فى ستة أيام وما فيهن ومن فيهن وما فوقهن قال تعالى : الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن ، فاسأل به خبيراً » . « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ماخلقناهم إلا بالحق . ولكن أكثر الناس لايعلمون » . وذكر الله تعالى « وما بينهما » كثيراً .

وقد اقتضت حكمته أن يملأ السماوات بخلائق النور تسبح بحمده وتقدس له . من ملائكته المكرمين وما خلقت الأرض إلا لتكون هى الأخرى مهاداً لعقلاء عابدين . . من جن وإنس : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . .

وما فى الأرض من حيوات غير عاقلة أو جماد فهو مسخر لهؤلاء العقلاء ليواصلوا فيها رسالتهم من العبادة والمعرفة . .

ولا شك أن هذا هو منطق الحكمة فى كل أرض وكوكب بين الأرض والسماوات فهل تخرج حكمة الله العظيم عن سنتها العليا ؟ ! كلا وربك . .

الأرض للعقلاء العابدين ، والسماوات كذلك . وما بينهما كذلك . قال تعالى : « فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » . ثم اقرأ فى تفاسير الأقدمين والمحدثين عند قوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . ويخلق مالا تعلمون . . الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهم . سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » . وأمثالها ؛ لترى بعض عجائب ملك الله وملكوته كما اهتدى إليه الأقدمون والمحدثون ، وما خفى فهو أعجب وأروع : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . وفوق كل ذى علم عليم » . .

علم الرسول :

أما محمد الكريم فقد رأى كل هذه الآفاق وما فوقها ، وعلم بها ولكنه ماحدث إلا بما يستدعى الهداية والحكمة فهو الذى يقول « ما من شىء لم أكن رأيته إلا أريته فى مقامى هذا حتى الجنة والنار . والحديث فى صحيح البخارى بعدة روايات . والجنة يقول عنها القرآن عرضها السماوات والأرض فهى بهن محيطة ، ولن يراها مالم ير ماتحتها وليس ذلك بعجيب بعد قول الله العظيم : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » أما أن الحكمة تستدعى الحديث عن ذلك فى تفصيل فنجده فى هدى حديثه فى البخارى « حدثوا الناس بما يفهمون . أتريدون أن يكذبوا الله ورسوله » . فطوى بهذا من غيب الآفاق مالا تهضمه بعض العقول واقرأ حديث ابن عباس قبلا « لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم » . أو حديث أبى هريرة فى البخارى . « علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم علمين أما أحدهما فقد بثثته فيكم وأما الآخر فلو حدثتكم عنه لقطعتم منى هذا البلعوم » . وصدق رسول الله « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم » .

كيف نتصل برهذه الكواكب :

سيتم بطريقين . . طريق العلم ووسائله من المذياع والرادار والتليفزيون وبالصواريخ والأقمار والسفن الفضائية ـ وذلك سلطان العلم الظاهر ـ وسيتم بالإسراء

لبعض الكرام من خلائق الله العظيم من عباده المكرمين من إنس وجن فينطلقون عبر الآفاق فى الكون المادى فى ملايين الكواكب فى أيسر جهد وأقرب وقت، فما أعطى لكل رسول من المعجزات أعطى بعضه لكرام أمته. ومعراج رسولنا العظيم كمال يكرم ببعضه أمته. حدث هذا لكرام الصوفية. ورمزوا له فى أحاديثهم. واقرأ للسهروردى والغزالى ولابن عربى وابن الفارض وغيرهم ... وسيحدث — إن شاء الله — عندما تأخذ الأرض زخرفها ظاهراً وباطناً قبيل النكسة الأخيرة تمهيداً للقيامة ...

قال تعالى: « يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان ». وقد نفذ الجن من قبل ميلاد الرسول فقعدوا من السماء مقاعد للسمع حتى إذا ماولد فقد حجبوا ولن يخترقوا الآفاق إلا بسلطان من منح الله العظيم — علماً ونوراً — حيث يتم الكمال فى رسالة المصطفى للخلق جميعاً « والله متم نوره » ...

كيف بعث الرسول الكريم للعالمين :

القرآن كلام الله العظيم فهو حكمة الهدى لكل مجال فى خلائق التكليف من عباده فلا شك أنه رسالة الكمال فى كل عالم: فهو هنا للإنس والجن وهم عقلاء الأرض ... قال تعالى. « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ... قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم. ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ». ولذلك كان الرسول الكريم يرى الجن يستمعون الذكر فلما نزلت سورة الرحمن ورددت « فبأى آلاء ربكما تكذبان » قال: « لقد كان إخوانكم الجن أكرم منكم إجابة .. قالوا: لانكذب بأى آية من آياتك يارب العالمين وقال تعالى: « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » ..

ولكن القرآن واضح فى رسالة المصطفى للعالمين، وليس لعالمى الجن والإنس فقط قال تعالى: « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ».

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وما دام القرآن هو حكمة الكمال فى كل رقى لعوالم التكليف : وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ... ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » . فما دام روح الحكمة ونورا لكمال فهو لكل العالمين... والمصطفى مرتبط بهؤلاء العالمين بآية الرحمة الكبرى : وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ومرتبط بالنور المشع الفياض فى كل الآفاق كالشمس لا تحتجب عن أرض وقمر . . . قال تعالى : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . » فشمسنا سراج للكواكب وشمس النور المحمدى سراج فى القلوب فى العالمين بأمر ربه وقد أعطى الصوفية الكرام بعض تفسير للكيان المحمدى الذى يهدى الأنس والجن هنا على الأرض ، ويهدى عوالم التكليف بين الأرض والسموات بأحاديثهم عن الرقائق عند الأولياء ، يبعثون برقائقهم لتحج أو لتصلى فى المقام النبوى بإمامة رقيقة كريمة من رقائق المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أوالإستماع إليه وتصحيح الحديث من فمه الشريف ، وحديث البدلاء الذى يتعجب منه أخونا الكاتب العراقى — صحيح وفياض بالمعرفة ، وصنعه العلم المادى فى جهاز التلفزيون عجيبة تعطى بعض التفسير لأسرار الكيان الحى صنعة الحى الأعظم . . أجل : المصطفى صلى الله عليه وسلم نذيراً بالقرآن وبشيراً لكل عوالم التكليف بذاته الكبرى ، وحقيقة العظمى . . فيتدبروا قول الله العظيم فيه : تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . » « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . » « وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً » .

وحديث ابن عباس الكريمين يعطى بعض التفسير أيضاً ، فهو يقول : بنى لنبيكم ، ونوح كنوح وإبراهيم كابراهيم . . . إنها رقائق كل بنى مثالا حيا للكمال يهدى كل مجال إلى الله العظيم فى حكمة من رسالته . . . حتى جاء الكمال فى كتاب للعالمين ، وجاء الكمال فى كائن رحمة للعالمين أجمعين : قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » صلوات الله عليك ياحبيبى يارسول الله فى الرفيق الأعلى فى ذكرى ميلادك .